الفصل الرابع

عمله فى أوربا
العروة الوثقى

أخفقت الثورة العرابية واحتل الإنجليز مصر، فسمحوا للسيد بالذهاب إلى أى بلد فاختار الشخوص إلى أوربا، فقصد إليها سنة ١٨٨٣م، وتعلم الفرنسية وهو كبير وأول مدينة وردها مدينة لندن، أقام بها أياما معدودات، ثم انتقل إلى باريس، وكان تلميذه الأكبر الشيخ محمد عبده منفيا فى بيروت عقب إخماد الثورة فاستدعاه إلى باريس، فوافاه إليها.

جمعية العروة الوثقى

وهناك أصدر جريدة (العروة الوثقى)، وقد سميت باسم الجمعية التى أنشأتها، وهى جمعية تألفت لدعوة الأمم الإسلامية إلى الاتحاد والتضامن، والأخذ بأسباب الحياة والنهضة، ومجاهدة الاستعمار، وتحرير مصر والسودان من الاحتلال البريطانى، وكانت تضم جماعة من أقطاب العالم الإسلامى وكبرائه، وكانت الدعوة إلى اتحاد الشرقيين تتردد وتتوالى فى معظم مداولاتها، إذ رأى الحكيمان أن تفرق الكلمة هو الثغرة الأولى التى ينفذ منها الاستعمار لتحقيق أهدافه فى البلاد الشرقية.

جريدة العروة الوثقى

وهذه الجمعية هى التى عهدت إلى السيد بإصدار تلك الجريدة لتكون لسان حالها، فكان مديراً لسياستها. والشيخ محمد عبده رئيسا لتحريرها.

واشتركا معا فى تحريرها، وكانت مقالاتها جامعة بين روح جمال الدين، وقلم الأستاذ الإمام. فجاءت آيات بينات فى سمو المعانى، وقوة الروح، وبلاغة العبارة، وهى أشبه ما تكون بالخطب النارية، تستثير الشجاعة فى نفوس قارئها، وتدانى فى روحها وقوة تأثيرها أسلوب الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى خطبه الحماسية المنشورة فى (نهج البلاغة) ولا غرو فالسيد جمال الدين هو قبس من نور العترة الحسينية العلوية، فكأن روح الإمام على تمثلت فيه، وتجلى أثرها فيما يكتبه أو يمليه.

هى رد فعل للاحتلال

ذكر الأمير شكيب أرسلان أنه سمع الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يقول: «إن الأفكار فى العروة الوثقى كلها للسيد ليس لى فيها فكرة واحدة، والعبارة كلها لى ليس للسيد فيها كلمة واحدة».

وقد جمع الأستاذ عبد القادر المغربى أحد تلاميذ الحكيم الأفغانى النسخ الأصلية لما ظهر من جريدة (العروة الوثقى) فكانت

ثمانية عشـر عددا وذكر أن هذه صورة ما كان مكتوبا على رأس كل عدد منها:

العروة الوثقى
لا انفصام لها

جريدة سياسية أدبية تصدر يوم الخميس

مدير السياسة — المحرر الأول
جمال الدين الحسينى الأفغانى — الشيخ محمد عبده

ترسل الجريدة إلى جميع الجهات الشرقية
قد عينت أجرة البريد خمسة فرنكات
فى السنة لمن تسمح بها نفسه[1]
من شاء أن يبعث إلينا بتحارير
أو رسائل فى أى موضوع كان رغبة
نشرة فى الجريدة أو التنبيه على أمر
مهم فليرسلها إلى إدارة الجريدة
بهذا العنوان:

6 Rue Hartei, à Paris

وقد صدر من الجريدة ثمانية عشر عددًا، ظهر العدد الأول منها فى يوم الخميس ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤م.

(١) جمال الدين الأفغانى – ذكريات وأحاديث – لعبد القادر المغربى ص ١٥.

أى قبـل أن ينقضى عامان على الاحتلال البريطانى.. ولقد كانت وقائع الثورة العرابية، والمؤامرات التى دبرتها السياسة الإنجليزية لإحباطها، واحتـلال إنجلترا مصر سـنة ١٨٨٢م. وتغلغل النفوذ البريطانـى فى شـئون الحكومة كافة، ومحاربـة الإنجليز للروح الوطنيـة فى مصر، كل ذلك كان له أثره فـى ظهور جريدة العروة الوثقـى، بحيث يصح القـول بأن صدورهـا كان رد فعل للاحتلال الأجنبى، وثورة عليه، وكانـت كتاباتها دعوة صادقة للجهاد ضد الاسـتعمار، موجهة إلى الأمة المصرية وإلى الشرقيين كافة، لأنهم جميعا هدف للمطامع الاستعمارية.

فاتحة العدد الأول

وفيما يلى فاتحة العدد الأول من جريدة (العروة الوثقى).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (سـورة الممتحنة: ٤).

هذا ماتمده العناية الإلهية من قول الحق، متعلقا بأحوال الشـرق، وعلى الله المتكل، فى نجاح العمل.

«خفيت مذاهـب الطامعين أزمانًا ثم ظهـرت، بدأت على طرق ربمـا لا تنكرهـا الأنفس ثم التـوت، أوغل الأقوياء مـن الأمم فى سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر، وسحروا ألبابهم حتى

أذهلوهم عن أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام، وبلغوا بهم من الضيم حدًّا لا تحتمله النفوس البشرية».

«ذهب أقوام إلى ما يسوله الوهم، ويغرى به شيطان الخيال، فظنوا أن القوة الآلية وإن قل عمالها، يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وإن اتفقت آحادها، بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير، فى النزر اليسير، وهو زعم يأباه القياس بل يبطله البرهان، فإن تقلبات الحوادث فى الأزمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنه إن ساغ أن عشيرة قليلة العدد فنيت فى سواد أمة عظيمة، ونسيت تلك العشيرة اسمها ونسبتها، فلم يجز فى زمن من الأزمان إمحاء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها فى العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة، وإن بلغت القوة أقصى ما يمثله الخيال».

«والذى يحكم به العقل الصريح، ويشهد به سير الاجتماع الإنسانى من يوم علم تاريخه إلى اليوم، أن الأمم الكبيرة إذا عراها ضعف لافتراق فى الكلمة، أو غفلة عن عاقبة لا تحمد، أو ركون إلى راحة لا تدوم، أو افتتان بنعيم يزول، ثم صالت عليها قوة أجنبية، أزعجتها ونبهتها بعض التنبيه، فإذا توالت عليها وخزات الحوادث وأقلقتها آلامها، فزعت إلى استبقاء الموجود، ورد المفقود، ولم تجد بدًّا من طلب النجاة من أى سبيل، وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية، وهى ما تكون بالتئام أفرادها، والتحام آحادها، وأن الإلهام الإلهى والإحساس الفطرى والتعليم الشرعى،

ترشـدها إلى أن لا حاجة لها إلى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسـر شئ عليها».

«إن النفوس الإنسانية وإن بلغت من فساد الطبع والعادة إذا كثر عديدهـا تحت جامعة معروفة لا تحتمـل الضيم إلا إلى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الإمكان، فإذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس إلى قواها، واستأسـد ذئبها، وتنمر ثعلبها، والتمسـت خلاصها، ولن تعدم عند الطلب رشادًا».

«ربما تخطئ مـرة. فتكون عليها الدائرة، لكـن ما يصيبها من زلـة الخطأ يلهمها تدارك ما فرط والاحتراس من الوقوع فى مثله، فتصيب أخـرى فيكون لها الظفر والغلبة، وإن الحركة التى تبعث لدفع ما لايطاق إذا قام بتدبيرها قيم عليها ومدبر لسيرها، لا يكفى فـى توقيف سـريانها أو محو آثارها قهـر ذاك القيم وإهلاك ذاك المدبر، فـإن العلة مادامت موجودة لا تـزال آثارها تصدر عنها، فإن ذهب قيم خلفه آخر أوسـع منه خبرة وأنفذ بصيرة، نعم يمكن تخفيف الأثر أو إزالة علته ورفع أسبابه».

«جرت عادة الأمم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها فى الأخلاق والعادات والمشـارب، وإن لم يكلفها بزائد عما كانت تدين به لمن هـو على شـاكلتها، فكيف بهـا إذا حملها ما لاطاقـة لها به، لا ريب أنها تستنكره، وإن كانت تستكبره، وكلما أنكرته بعدت عن الميل إليـه، وكلما ابتعدت منه بجهة كونه غريبا، تقرب بعضها

من بعض فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك بغريب».

«إن مجاوزة الحد فى تعميم الاعتداء تنسى الأمم ما بينها من الاختلاف فى الجنسية والمشرب، فترى الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر، ألزم من التحزب للجنس والمذهب، وفى هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية إلى الاتفاق أشد من دعوتها إليه للاشتراك فى طلب المنفعة».

«أبعد هذا يأخذنا العجب إذا أحسسنا بحركة فكرية فى أغلب أنحاء المشرق فى هذه الأيام؟ كل يطلب خلاصا ويبتغى نجاة وينتحل لذلك من الوسائل والأسباب ما يصل إليه فكره على درجته من الجودة والأفن[1]، وأن العقلاء فى كثير من أصقاعة يتفكرون فى جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل».

«بلى. كان هذا أمرًا ينتظره المستبصر وإن عمى عنه الطامع، وليس فى الإمكان إقناع الطامعين بالبرهان، ولكن ما يأتى به الزمان من عاداته فى أنبائه بل ما يجرى به القضاء الإلهى من سنة الله فى خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون»

«بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته، ووصل العدوان فيهم نهايته، وأدرك المتغلب منهم نكايته، خصوصًا فى المسلمين، فمنهم ملوك أنزلوا عن عروشهم جورا، وذوو حقوق فى الإمرة حرموا حقوقهم

(١) ضعف الرأى.

ظلمًا، وأعــزاء باتوا أذلاء وأجلاء أصبحوا حقراء، وأغنياء أمســوا فقراء، وأصحاء أضحوا سقامًا، وأسود تحولت أنعامًا، ولم تبق طبقة من الطبقات إلا وقد مســها الضر مــن إفراط الطامعين فى أطماعهم، خصوصــاً من جراء هذه الحوادث التــى بذرت بذورها فى الأراضى المصرية من نحو خمس سنوات بأيدى ذوى المطامع فيها».

«حملوا إلى البلاد ما لا تعرفه فدهشت عقولها، وشدوا عليها بما لا تألفه فحارت ألبابها، وألزموها ما ليس فى قدرتها فاســتعصت عليه قواها، وخضدوا من شــوكة الوازع تحت العدالة ليهيئوا بكل ذلك وســيلة لنيــل المطمع، فكانــت الحركة العرابية العشــواء، فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين، فاندفع بهم ســيل المصاعب بل طوفان المصائب علــى تلك وظنوا بلوغ الأرب، ولكن أخطأ الظن وهموا بما لم ينالوا».

«لــم تكد تخمد تلك الحركة فى بادئ النظر حتى خلفتها حركة أخرى، وفتح باب كان مســدودًا وقام قائم بدعوة لها المكانة الأولى فى نفوس المســلمين، بل هــى بقية آمالهم، ولا نــدرى الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة الجديدة، وربما يوجد من يدرى أن مسببيها فى حيرة من تلافيها، نعم إنهم غرســوا غرســا إلا أنهم سيجنون أو هــم يجنون منه حنظلًا، ويطعمون منــه زقوما. لاجرم هذه هى العواقــب التى لا محيص عنها لمن يغالى فــى طمعه، ويغلغل فى حرصــه، ولو أنهم تركــوا الأمر من ذلك الوقــت لأربابه، وفوضوا

تـدارك كل حادث للخبراء بـه، والقادرين عليـه العارفين بطرق مدافعتـه، أو اقتنـاء فائدته، لحفظوا بذلـك مصالحهم، ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة، بدون أن تزل لهم قدم أو ينكس لهم علم».

«غيـر أنهم ركبوا الشـطط وغرهـم ما وجدوا من تفـرق الكلمة وتشـتت الأهواء، وهو أنفذ عواملهم وأقتلها، ومـا علموا أنه وإن كان ذريـع الفتك إلا أنه سـريع العطب، ما أسـرع أن يتحول عند اشـتداد الخطوب إلى عامل وحدة يسدد لقلوب المعتدين، فإن بلاء الجور إذا حل بشـطر من الأمة وعوفى منه باقيها، كانت سـلامة البعـض تعزية للمصابين، وحجاب غفلة للسـالمين، يحول بينهم وبين الإحساس بما أصاب إخوانهم، أما عم الضر، فلا محالة يحيط بهم الضجر، ويعز عليهم الصبـر، فيندفعون إلى ما فيه خيرهم، ولا خير فيه لغيرهم».

«إن الحالة السـيئة التى أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسـلمين عمومًـا، إن مصر تعتبر عندهم من الأراضى المقدسـة، ولها فى قلوبهم منزلة لا يحلها سـواها نظرًا لموقعها من الممالك الإسـلامية، ولأنها باب الحرمين الشريفين، فإن كان هذا الباب أمينًا كانت خواطر المسـلمين مطمئنة على تلك البقاع، وإلا اضطربت أفكارهم وكانوا فى ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الإسلامية».

«إن الخطر الذى ألم بمصر نغرت له أحشاء المسلمين، وتكلمت بـــه قلوبهم، ولن تزال آلامه تســتفزهم ما دام الجــرح نغارا، وما هذا بغريب على المســلمين، فإن رابطتهــم الملية أقوى من روابط الجنســية واللغة. ومادام القرآن يتلى بينهم وفى آياته مالا يذهب على أفهام قارئيه، فلن يستطيع الدهر أن يذلهم».

«إن الفجيعة بمصر حركت أشجانًا كانت كامنة وجددت أحزانًا لم تكن فى الحســبان، وســرى الألم فى أرواح المســلمين ســريان الاعتقــاد فى مداركهم، وهــم من تذكار الماضــى ومراقبة الحاضر يتنفســون الصعــداء، ولا نأمن أن يصير التنفس زفيــرا، بل نفيرا عامًا، بل يكون صاخة تخرق مسامع من أصمه الطمع».

«إن أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من الناس لا كتائب له فى فتوحاته إلا المداهاة، ولا فيالق يسوقها للاستملاك سوى المحاباة، ولا أسنة يحفظ بها ما تمتد إليه يده إلا المراضاة، يظهــر بصورة مختلفة الألوان، متقاربة الأشــكال، كحافظ عروش الملوك والمدافع عن ممالكهم، ومثبت مراكز الأمراء ومسكن الفتن، ومخلص الحكومات عن غوائل العصيان، وواقى مصالح المغلوبين، فكأن أول ما يجب عليه ملاحظته فى سيره هذا أن لا يأتى من أعماله بما يهتك هذا الستر الرقيق الذى يكفى لتمزيقه رجع البصر، وكر النظر، وأن يتماشى العنف مع أمة يشهد تاريخها بأنها إذا حنقت خنقت، وليس له أن يغتــر بعدم مكنتهم، وهو يعلم أن الكلمة إذا

اتحدت لا تعوزها الوسائط، ولا يعدم المتحدون قويا شديد البأس يساعدهم بما يلزمهم لترويج سياسته، وأن المغيظ لا يبالى فى الإيقاع بمناوئه أسلم أو عطب فهو يضر ليضر، وإن مسه الضر».

«إلا أن غشية النهم ذهبت بعقول المنهومين، ووقرت أسماعهم عن حسيس الهمسات المتراسلة من الهند إلى مكة، ومن مكة إلى مصر، والكرير[1] الممتد من مصر إلى مكة ومن مكة إلى الهند، وكلها تتلاقى بين تراقى المغرورين بقوتهم، المسترسلين فى جفونهم».

«إن الرزايا الأخيرة التى حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط، وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها، فأيقظت أفكار العقلاء، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمورهم، مع ملاحظة العلل التى أدت بهم إلى ما هم فيه، فتقاربوا فى النظر، وتواصلوا فى طلب الحق، وعمدوا إلى معالجة الحق وعلل الضعف، راجين أن يسترجعوا بعض مافقدوا من القوة، ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلاً حسناً يسلكونه لوقاية الدين والشرف، وإن فى الحاضر منها لنهزة تغتنم، وإليها بسطوا أكفهم ولا يخالونها تفوتهم، ولئن فاتت فكم فى الغيب من مثلها، وإلى الله عاقبة الأمور».

---

(١) الكرير صوت من الصدر كصوت المختنق.

«تألفت عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل فى عدة أقطار، خصوصا البلاد الهندية والمصرية، وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه، ويوحدون كلمة الحق فى كل صقع، لا ينون فى السعى، ولا يقصرون فى الجهد، ولو أفضى بهم ذلك إلى أقصى ما يشفق منه حى على حياته».

«ولما كانت بدايتهم تستدعى مساعدة من يضارعهم فى مثل حالهم، رأوا أن يعقدوا الروابط الأكيدة مع الذين يتململون من مصابهم، ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالى أوربا، وكتبوا على أنفسهم النظر فى أمر السلطة العامة الإسلامية وفروض القائم بها، وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين، ومناط اليقين، وفيها موسم الحجيج العام فى كل عام، يجتمع إليه الشرقى والغربى، ويتآخى فى مواقعها الطاهرة الجليل والحقير، والغنى والفقير، كانت أفضل مدينة تتوارد إليها أفكارهم ثم تنبثت إلى سائر الجهات، والله يهدى من يشاء إلى سواء السبيل».

«ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر، وأقرب إلى الظفر، يستدعى أن يكون للداعى فى كل قلب سليم نفثة حق، ودعوة صدق، طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم، بين من خفى عنه شأنهم من إخوانهم، واختاروا أن يكون لهم فى هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم، وهو اللسان العربى، وأن تكون فى مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم، وتوصيل

أصواتهـم إلى الأقطار القاصية، تنبيهـا للغافل، وتذكيرًا للذاهل، فرغبوا إلى (السـيد جمال الدين الحسينى الأفغانى) أن ينشئ تلك الجريدة، بحيث تتبع مشـربهم، وتذهب مذهبهم فلبى رغبتهم، بل أدى حقا واجبًا عليه لدينه ووطنه، وكلف (الشيخ محمد عبده) أن يكـون رئيس تحريرها، فكان ما حمل الأول على الإجابة حمل الثانى على الامتثال، وعلى الله الاتكال فى جميع الأحوال».

احتـوت المقالـه كما ترى نـداء قويًا للأمم الشـرقية أن يتحد أبناؤها لدرء الأخطار المحدقة بهم المهددة لكيانهم، وفيها دعوة للمواطنين فى كل أمة شـرقية أن يتكتلوا وينبذوا الفرقة والانقسام. ويقاوموا الاسـتعمار بكل ما لديهم من حول وقوة، وثبات وإيمان. وفيها اسـتنكار للاحتـلال البريطانى الذى نكبت به مصر سـنة ١٨٨٢م، وإشـادة بمركز مصر فى الشـرق ودعوة صادقة لتحريرها من نير الاحتلال وتحذيـر المصريين من أن يثقوا بوعود الإنجليز الكاذبة.

منهج الجريدة

وفى العدد نفسه مقالة عن منهج الجريدة. جاء فيها:

«سـنأتى فـى خدمة الشـرقيين على مـا فى الإمـكان من بيان الواجبات التى كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف، وتوضيح الطرق التى يجب سـلوكها لتدارك ما فات، والاحتراس من غوائل ما هو آت».

«ويستتبع ذلك البحث فى أصول الأسباب ومناشئ العلل التى قصرت بهم إلى جانب التفريط، والبواعث التى دفعت بهم إلى مهامه حيرة عميت فيها السبل، واشتبهت بها المضارب، وتارة فيها الخريت[1]، وضل المرشد، حتى لا يدرى السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة، والمزعجات المدهشة، والمدهشات القاتلة».

«وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين، ولبست عليهم مسالك الرشد وتزيح الوساوس التى أخذت بعقول المنعمين حتى أورثتهم اليأس من مداواة علاتهم وشفاء أدوائهم، وظنوا أن زمان التدارك قد فات، وأن العلة بلغت حدها».

«وتحاول أشراب الأفهام أن لا حاجة فى الوصول إلى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة، تصورها يوجب فتور الهمم وانحطاط العزائم. وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة إنما عرض من الإدبار عن المطلوب وهو تحت الجناح، ويكفى فى الوصول إليه عطفة نظر، وقطع بعض خطوات قصيرة».

«وإن الظهور فى مظهر القوة لرفع الكوارث، إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم،

(١) الخريت: الدليل الحاذق الذى يهتدى إلى أخرات الأرض أى مضايقها وطرقها الخفية.

وهى ما تمسكت به أعز دولة أوربية وأمنعها[1] ولا ضرورة فى إيجاد المنعة إلى اجتماع الوسائط، وسلوك المسالك التى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى، ولا ملجأ للشرقى فى بدايته، أن يقف موقف الأوربى فى نهايته، بل ليس له أن يطلب ذلك، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرا أعجزها وأعوزها».

«وتنبه على أن التكافؤ فى القوى الذاتية والمكتسبة، هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية، فإن فقد التكافؤ لم تكن الروابط إلا وسيلة القوى لابتلاع الضعيف، وتجعل إهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة، المدبج بأشكال المجاملة، شفافًا ينم عما وراءه، وتنقب عن المسالك الدقيقة، التى يسرى بها الطامعون فى دياجير الغفلات».

«وتهتم بدفع ما يرمى به الشرقيون عمومًا والمسلمون خصوصا من التهم الباطلة التى يوجهها إليهم من لا خبرة له بحالهم، ولا وقوف على حقائق أمورهم، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون إلى المدنية ما داموا على أصولهم التى فاز بها آباؤهم الأولون».

«ولا تهن فى تبليغ الشرقيين ما يمسهم من حوادث السياسة العمومية وما يتداوله السياسون فى شئونهم، مع اختيار الصادق، وانتقاء الثابت.»

---

(١) يريد روسيا.

«وتراعى فى جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة فى أفرادها، وتأييد المنافع المشتركة بينها، والسياسات القويمة التى لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين».

«ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين إليها، والحاملين عليها، لا تظهر إذا أدلجوا، ولا تنجد إذا غوروا وتذهب مذاهب الرشد وتصيب بحول الله مواقعه عند من سبق فى أزلى علم الله هدايته، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم».

«وترسل إلى الذين نعرف أسماءهم مجاناً بدون مقابل ليتداولها الأمير والحقير، والغنى والفقير، ومن لم يصل إلينا اسمه فما عليه إلا أن يكتب إلى إدارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل إقامته على النهج الذى يريده والله الموفق».

* * *

اتخذت العروة الوثقى شعارها إيقاظ الأمم الإسلامية، والمدافعة عن حقوق الشرقيين كافة، ودعوتهم إلى مقاومة الاستعمار الأوربى، والجهاد فى سبيل الحرية والاستقلال.

منع العروة الوثقى
من دخول مصر والهند

وقد ذاع شأنها فى العالم الإسلامى، وأقبل عليها الناس فى مختلف الأقطار، ولكن الحكومة الإنجليزية أقفلت دونها أبواب

مصر والهند، وشددت فى مطاردتها واضطهاد من يقرؤها، بل كانت تتوجس منها خيفة وتعد العدة لمصادرتها قبل ظهورها.

وفى ذلك تقول فى عددها الخامس الصادر بتاريخ ٤ جمادى الآخر سنة ١٣٠١هـ - ١٠ أبريل ١٨٨٤م.

«لو نادينا الغافلين أن انتبهوا، والنائمين أن استيقظوا، واللاهين بحظوظهم أو أمانيهم وأوهامهم أن التفتوا، ولو أنذرنا أهل مصر بأن الإنجليز لو ثبتت أقدامهم فى ديارهم لحاسبوا الناس على هواجس أنفسهم وخطرات قلوبهم، بل على استعداد عقولهم لما عساه يخطر ببالهم، لقال الناس إننا نبالغ فى الإنذار ونغرق فى التحذير، ولو بينا لهم أن الإنجليز يؤاخذون الأبناء بذنوب الآباء، والأحفاد بجرائم الأجداد، ويطالبون الذرارى بدفائن أسلافهم، وإن لم يكن للخلف علم بما ترك السلف، لعدوا هذا البيان منا شططًا فى المقال وميلاً عن الاعتدال..» إلى أن قالت الجريدة: «فلا نذكر ولا نبين. ولا نحكى ولا نقص. ولكن نعرض عليهم نموذجًا من المعاملة لعله يكون للمتبصرين مرآة تحكى ما يغيب عنهم من لوازم السلطة الإنجليزية، عزمنا على إنشاء جريدتنا هذه، فلما وقف على الخبر محررو الجرائد الإنجليزية المهمة أخذتهم الحدة، واحتدمت فيهم نار الحمية، وأنذروا حكومتهم بما تؤثر هذه الجريدة فى سياسة الأنجليز ونفوذها فى البلاد الشرقية، ولجوا فى إغرائها بها، وألحوا عليها أن تعهد كل وسيلة لمنع

الجريدة مـن الدخول فى البلاد الهندية والبلاد المصرية، كل هذا كان منهم قبل صدور أول عدد من جريدتنا».

إلى أن قالت: «ولكن فلتعلم الحكومة الإنجليزية أننا لا يعجزنا بث أفكارنا فى البلاد الشـرقية سواء كان بهذه الجريدة أو بوسيلة أخرى إذا دعا الحال، فإن أنصار الحق كثيرون».

ولم تطق بريطانيا صبرًا على جريدة العروة الوثقى وعملت على منع دخولها فى مصر والهند، فأوعزت إلى الحكومة المصرية بمصادرتها وتغريم كل من توجد عنده من خمسـة جنيهات إلى خمسة وعشرين جنيهًـا، قالت الجريدة فى هذا الصدد فى عددها التاسـع الصادر فى ٢٥ رجب سنة ١٣٠٢هـ (٢٠ مايو سنة ١٨٨٤م) ما يلى:

«انعقـد مجلس النظار المصرى فى القاهرة[١] واهتم بالبحث فى شـأن (العروة الوثقى) ثم أصدر قراره إلى نظارة الداخلية المصرية قاضيا عليها بأن تشـتد فـى منع هذه الجريدة مـن دخول الأقطار المصرية، وتراقب جولاتها فى تلك الديار، فصدر أمر الداخلية إلى إدارة (عموم البوسـطة) يلزمها الدقة فى ذلك، وبلغنا أن الجريدة الرسـمية بعد نشـرها صورة الأوامر أعلنت أن كل من توجد عنده العـروة الوثقى يغرم مبلغا خمسـة جنيهات مصرية إلى خمسـة وعشـرين جنيهًا (وهى غرامة جسيمة ربما دعا إليها عسر المالية المصرية ببركة تصرف الإنجليز فى مصر)[٢]».

(١) كانت الوزارة برياسة نوبار.

(٢) كما جاء فى (العروة الوثقى) عدد ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤م.

«أمـا نحن فلا نظن أحدًا مـن النظار المصريين له رأى اختيارى فى هذا القرار، بل لا نتوهم فى المستوى على كرسى الخديوية ميـلاً إلى مثل هذا الحكم، ولا يختلج فى صدورنا أن مصريًا من أى مشـرب كان سـواء المسلم أو غير المسـلم منهم بل ولا شرقيا ممن يسكن تلك البلاد يرى فيه جانبا من العدل.»

«هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستنجاد لهم، ولها سـعى بل كل السـعى لخيبة آمال أعدائهم، ولا ترى من مشـربها مدح زيد ولا القدح فى عمرو فإن المقصد أعلى وأرفع من هذا، وإنما عملها سكب مياه النصح على لهب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عموما على الصفاء والوداد، تتلمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سـلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسـلحتهم لدفع الضوارى التى فغـرت أفواهها لالتهامهم، ومن رأيها أن الاشـتغال بداخل البيت إنما يكون بعد الأمن من طروق الناهب.»

«هذا منهاج (العروة الوثقى) علمه كل مطلع على ما نشـر فيها من يوم نِشأتها إلى الآن. فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقيًا مسلمًا أو غير مسلم يميل لحجبها عن دياره، ولكنا نعلم أن حركات الآمرين فى القطر المصرى هذه الأيام قهرية لا يخالطها شـئ من الاختيار والمدير لرحى الفخر عليهم هم عمال الإنجليز».

«ولا نريـد أن نقول للإنجليـز إنهم ظلموا فى هـذا الحكم فإن الجريـدة لم يوجد فيها إلـى الآن ما يزيد على ماتنشـره الجرائد الوطنيـة والأجنبية من كشـف مسـاتيرهم، وبيـان الرزايا التى

أصيبت بها الديار المصرية مـن حلولهم[1]. لأنهم الإنجليز الذين إذا أحسـوا بشهرة عالم من علماء المسلمين فى الهند وإقبال الناس عليه بالاعتبار أسـرعوا بجلبه إلى ديوان الشرطة (الضبطية) فعند وصولـه إليها يفتح لـه الضابط مصحف قـرآن أو كتاب حديث من الكتب المشـهورة ثم يشير إلى آية من آيات الجهاد أو حديث مما يدعو إليه ويسأله: هل أنت معتقد بهذه الآية أو الحديث؟ فإذا قال نعـم. قال له فبناء على ذلك يكون مـن رأيك وجوب الجهاد فينا، فإذا أجابه بأننى درويش مـلازم العزلة عن الناس وليس اعتقادى بهـذا إلا لأنه كتاب دينى، ضرب له الضابط أجل أربعة أيام أو أقل يبيـن فيها رأيه فى الآية أو الحديث، فإن مضى الأجل ولم يحرف العالم دينه، ولم يبدل عقيدته، ولم يبادر بإرسال تحريفه وتبديله وخروجه عن دينه إلى مطبعة من المطابع ليطبع وينشر - بعثت به الحكومة إلـى جزيرة (أندومان)[2] نفيًا مؤبدًا، ولو رأيت الجزيرة لرأيتها غاصة بأمثال هؤلاء المظلومين.

«فدولة الإنجليز التى تحاسـب رعاياها المسلمين على خطرات قلوبهم وما يمكن أن يهجس من حديث نفوسهم، لا ريب أنها تعد وجود لفظ الإسـلام فى جريدة كافيًا لمنعها عـن الدخول إلى بلاد لها فيها قدم ثابت، أو تسـعى فى تثبيته، بل تحسـب أن من ألد أعدائها شـخصًا علق عليه هذا الاسم من أى جنس كان، فلا غرابة

(١) الحلول بمعنى الاحتلال.

(٢) جزيرة بالمحيط الهندى.

فى صدور مثل هذا الجور منها، غير أننا نعلن لها أن همم الرجال لا تقعدها أمثال هـذه المظالم، وليس يعجزنا إدخال هذه الجريدة فى كل بقعة تحوطها السـلطة الإنجليزيـة الظالمة، وذلك بعزائم أولى العزم الذين قاموا بإنشاء العروة الوثقى.

«بلغنا أن بعضًا من الناس يسـل سيفه ويشـحذ سنانه لمناضلة الولى الحميـم، ويقابل ثنـاءه بالذم، ومدحه بالقدح، وإحسـانه بالإساءة، ويواجه نصيحته بالظنة.ولا نظن أن هذا منه عن عمد ولا إغراء عدو، وإنما هو لشبهة حجبت نظره عن إدراك الحقيقة، فإذا كشـفت له أيام عن الواقع رجع إلى الندم على ما صدر منه، وكانت له مثابة إلى الحق وركون إلى الصواب.

«لا يحزنن أهل الحـق القائمون بأمر هذه الجريدة على ما صدر عـن الحكومة المصرية من منع (العـروة الوثقى) عن دخول القطر المصرى وليعلموا أن الحكومة المصرية لا دخل لها فى هذا المنع، فإن حكومة شـرقية لا تسمح لها غيرتها بمنع جريدة لا شىء فيها سـوى الدفاع عن الشرقيين، وإنما منشـؤه حكومة إنجلترا وشأنها معلوم عند كل عارف بأحوالها».

تقصد الشرقيين عامة
لا المسلمين وحدهم

وكانـت دعـوة (العروة الوثقـى) موجهة إلى الشـرقيين عامة لا المسـلمين وحدهـم، وفـى ذلـك يقول جمـال الديـن فى عدد

١٨ رجب سنة ١٣٠١هـ (١٥ مايو سنة ١٨٨٤م): «لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانًا ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم فى أوطانهم ويتفق معهم فى مصالح بلادهم ويشاركهم فى المنافع من أجيال طويلة فليس هذا من شأننا ولا مما يخيل إليه ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا ولكن الغرض تحذير الشرقيين عمومًا والمسلمين خصوصا من تطاول الأجانب عليهم والإفساد فى بلادهم، وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم العنصر الغالب فى الأقطار التى غدر الأجنبيون وأذلوا أهلها أجمعين واستأثروا بجميع خيراتها».

❑❑❑